آل بكتكين ـ مظفر الدين كوكبري

أو

امارة اربل في عهدهم

(٥٢٢ هـ — ٦٣٠ هـ)

— ٢ —

٤ — نوابه

لا تظهر ادارة زين الدين علي كوچك واضحة في اربل ، وانما تتعين بذكر نوابه ، وما قاموا به من أعمال ، فلا ريب أنهم تابعون لأمره ، منقادون لتوجيهه . وهو في الحقيقة المؤسس لهذه الامارة ، كانت اقطاعه ، فتمكن أخلافه فيها . ولا يمت بنسب الى الدولة الزنكية ، وانما هو من مماليك آق سنقر والد مؤسسها ، وقد أرضت ادارته الدولة والأمة . وكان قد ولي اربل كثيرون ، فلم يعرف لهم اسم ، ولكنه ذاع صيته ، وانتشر خبره . فقام بما يمكن القيام به ، فعرفت اربل بعد ان كانت خاملة مهملة . فقضى آخر أيامه فيها . وكان فيها مرقده الأخير .

وهؤلاء نوابه :

١ — سرفتكين الزيني نائب اربل :

كان زين الدين علي كوچك متصلاً بالموصل اتصالاً غير منفك ، فيعين نواباً عنه في اربل . وان المترجم أحدهم . كان أرمنياً فأسلم ، وربي تربية صالحة فأعتقه سيده ، وتقدم عنده ، واعتمد عليه في كثير من أموره ، واستنابه في اربل من تاريخ فتحها سنة ٥٢٢ هـ .

وللتربية الاسلامية أثرها فيه ، فكان من الأخيار ، وادارته قويمة ، أرضت الأهلين كما كانت أعمال سيده كذلك . ومن أعماله المبرورة :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

١ — بنى مساجد كثيرة في اربل وغيرها .

٢ — بنى مدرسة القلعة سنة ٥٣٣ .

٣ — بنى سور مدينة فيد التي في طريق مكة من جهة بغداد .

أثر آثاراً صالحة أمثال ما ذكر . وكل ما فعله من ماله . ولا شك انه تمشى ورغبة زين الدين وظهرت مكانة زين الدين بنائبه المذكور .

توفي في شهر رمضان سنة ٥٥٩ هـ[1] .

٢ — أبو منصور مجاهد الدين قايماز الزيني (نائب اربل) :

هو ابن عبد الله الملقب مجاهد الدين الخادم . كان عتيق زين الدين علي كوچك ، وأصله من سجستان ، أخذ صغيراً ، وكان أبيض اللون ، نسب الى زين الدين فقيل (الزيني) . وكانت مخائل النجابة لائحة عليه ، فقدمه معتقه وجعله أتابك أولاده ، وفوّض اليه أمور اربل نيابة عنه في ٥ رمضان سنة ٥٥٩ هـ — ١١٦٤ م أي صار نائب اربل اثر وفاة سرفتكين مباشرة وبعد وفاة زين الدين علي كوچك سنة ٥٦٣ هـ - ١١٦٨ م خلفه ابنه مظفر الدين كوكبري فكان نائبه .

ثم خلع مظفر الدين من الامارة ، وولي أخوه الأصغر زين الدين يوسف ايناالتكين ، فكان نائبه ايضاً . ودام الى سنة ٥٧١ هـ . وفي هذا التاريخ انتقل الى الموصل ، وتولى أمورها في ذي الحجة سنة ٥٧١ هـ — ١١٧٦ م ، صار نائب الموصل في دولة الأتابكة ، فراسل الملوك وراسلوه ، وكان يبلغ منهم بكتبه ما لم يبلغ سواه . وكان منشيه (مجد الدين ابن الأثير) ، فوض اليه الأتابك سيف الدين غازي بن مودود (٥٦٥ هـ — ٥٧٦ هـ) الحكم في بلاده ، لما رآه من اخلاصه وحسن مقاصده ، واعتمد عليه في جميع أحواله .

ومن المهم ذكره هنا ان مجاهد الدين هذا كان يحمل اكثر أموال اربل أيام نيابته ، يقدمها الى الأتابك . وبهذا تقرب الى أتابكة الموصل ، وجلب النفرة

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٤٦١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والنقمة عليه من الاربليين . ومن جهة أخرى انه أثر اثاراً جميلة في الموصل ، ولم يكن لاربل نصيب منها .

وفي أيام الأتابك عز الدين مسعود (٥٧٦ هـ — ٥٨٩) قبض عليه في جمادى الأولى سنة ٥٧٩ هـ — ١١٨٣ م وبقي مقبوضاً عليه عشرة أشهر ، ثم أطلقه وأعاده الى ما كان عليه [1] . وتوفي في ربيع الأول سنة ٥٩٥ — ١١٩٩ م .

هذا . ولما كان انتقاله الى الموصل سنة ٥٧١ هـ فهذا بعد مبدأ تولي أبي المظفر زين الدين يوسف ابنالتكين الأمور بنفسه ، وقيامه بأعباء الحكم مباشرة وقد علمنا أن نيابة مجاهد الدين قايماز بدأت من وفاة صرفتكين الزيني ، ودامت الى التاريخ المذكور وقد انتقل الى الموصل . وكان في أيام زين الدين علي كوچك قد ظهر بمظهر المخلص ، وبعد وفاته استبد بالحكم الا انه أخلص للأتابكة حتى صار نائب الموصل . وفي اربل حدثت بينه وبين زين الدين يوسف مشادة ، كما ان فعلته مع كوكبري غير مجهولة .

قال ابن الأثير في الكامل : « كان عاقلاً أديباً خيراً فاضلاً يعرف الفقه على مذهب أبي حنيفة ويحفظ من التاريخ والأشعار والحكايات شيئاً كثيراً . » اهـ [2]

وتفصيل حياته في أتابكة الموصل ، وفي الكامل ، وفي كتاب الروضتين وابن خلكان ومؤلفات عديدة .

٥ — امارة مظفر الدين كوكبري الاولى

هذه الامارة قصيرة الأجل ، قليلة المدة . وكان أبو منصور قايماز أرضى سيده زين الدين علي كوچك حتى نال نيابة اربل ، وجعله اتابك أولاده ، وبعد وفاته تمكن من نزع الامارة من ابنه كوكبري . قال ابن خلكان في وفياته : « لما توفي زين الدين علي كوچك ولي موضعه ولده مظفر الدين كوكبري ،

(١) الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ٢٠٣ وهو الصواب بخلاف ما ذكر في ابن خلكان ج ١ ص ٦٠٩ . وهناك ترجمته . (٢) الكامل لابن الاثير ج ١٢ ص ٦٤ وهناك تفصيل حياته .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعمره ١٤ سنة وكان اتابكه مجاهد الدين قايماز ، فأقام مدة ، ثم تعصب مجاهد الدين عليه ، وكتب محضراً انه ليس أهلاً لذلك ، وشاور الديوان العزيز في أمره واعتقله ، وأقام أخاه زين الدين أبا المظفر يوسف مكانه ، وكان أصغر منه ، ثم أخرج مظفر الدين من البلاد ، فتوجه الى بغداد ، فلم يحصل له بها مقصوده ، فانتقل الى الموصل ومالكها يومئذ سيف الدين غازي بن مودود ... ثم اتصل بخدمة السلطان صلاح الدين وحظي عنده الخ » اهـ (١) .

ومن هذا نعلم ان قايماز كان قد تحامل عليه بل تعصب وان ذهابه الى الموصل يوافق أيام سيف الدين غازي بن مودود (٥٦٥ هـ — ٥٧٦ هـ) أي انه من حين علم بالأتابك الجديد مال اليه مستنصراً به بعد ان لم ينل قبولاً من بغداد .

وقال ابن الأثير في كامله : « ولي — قايماز — اربل سنة ٥٥٩ هـ فلما مات زين الدين علي كوچك سنة ٥٦٣ هـ بقي هو الحاكم فيها ، ومعه من يختار من أولاد زين الدين ليس لواحد منهم معه حكم . » اهـ (٢)

ومن هذا نعلم أن قايماز قد تحامل عليه ، وأهانه بالحبس ، وطرده ، فذهب الى بغداد فخاب مسعاه ، ولما سمع بأن سيف الدين غازي بن مودود قد صار أتابكاً مال اليه مستنصراً به بعد ان خذل من دار الخلافة وكان يظن ان الخليفة يتخذه وسيلة للتدخل في أمور اربل ، فلم يخيب سيف الدين أمله ...

٦ — حياة مظفر الدين كوكبري خارج اربل

ان طرد مظفر الدين من اربل بعد حبسه واهانته وتعصب مجاهد الدين قايماز عليه لم يفلّ من عزمه ، فيمضي الى دار الخلافة ، ثم الى الموصل الى الأتابك سيف الدين غازي . وكان قد ولي الموصل بعد الحادث الذي جرى عليه ، فاتخذه وسيلة للذهاب اليه . وهذا الأتابك لم يرده خائباً ، واقطعه حران . ودامت امارته عليها مدة . وهو تابع للأتابكة منقاد لأوامرهم .

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٦٢٠ طبعه بولاق . (٢) الكامل لابن الاثير ج ١٢ ص ٦٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي سنة ٥٧١ صار مجاهد الدين قايماز نائب الموصل ، وولي أمر الأتابكة بالنيابة، فكان ذلك داعية التذمر من ادارة الاتابكة لما كان بينه وبين مجاهد الدين من العداء والنفرة من معاملته .

ولم يتعرض المؤرخون لذكره الا قليلاً . وكان أهل الاقطاع لا يذكرون حتى يظهر ما يستوجب . كأن يقوم بالخدمات المطلوبة بلا تردد . ومن أهم الحوادث ان المشادة بين الأتابكة وبين السلطان صلاح الدين قد بلغت منتهاها ، ففي شوال سنة ٥٧١ هـ — ١١٧٦ م جرى مصاف بينهما ، فانكسرت ميسرة السلطان صلاح الدين بمظفر الدين كوكبري ، وكان مظفر الدين في هذه المعركة في ميمنة الأتابك سيف الدين ، فانتصر من جهته . ولما رأى السلطان صلاح الدين تكوّن الخطر حمل بنفسه وجازف بقوته ، فانكسر سيف الدين ومن معه كسرة هائلة ، وتركوا أثقالهم ، وخيامهم وما نجحت المفاوضات قبل هذه المعركة في أمر الصلح لتمنع سيف الدين وأمله في القضاء على صلاح الدين ، اذ انه في حالته لم يتحمل انتصارات السلطان صلاح الدين ، فخذل خذلاناً عظيماً وكانت هذه الواقعة قاصمة الظهر .

والى هذه الأيام كان مظفر الدين موالياً للأتابكة ، ومثله زين الدين يوسف أخوه . ولكنه بتولي مجاهد الدين قايماز الأمر في هذه السنة (نيابة الموصل) ، وتسلطه على دولة الأتابكة لم يبد شيئاً ، كتم غيظه ، ولم يجاهر بالخلاف عليه وبعد وفاة الملك الصالح بن نور الدين الشهيد في ١٣ رجب سنة ٥٧٧ حدث ماحدث بين الأتابكة وصلاح الدين وكان الأتابك عز الدين وصاحب أمره مجاهد الدين أيضاً ، فلم يعتد بأمراء الشام ، ونعته المؤرخون بأنه كان ضيق العطن ، فرحل الأتابك من حلب وكان قد أقام بها الى ١٦ شوال من هذه السنة ، حتى أتى الرقة ، ولقي الأتابك أخاه عماد الدين فاستقر بينهما مقايضة حلب بسنجار لاعتقاد الأتابك انه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل لحاجته الى ملازمة الشام لاجل السلطان صلاح الدين ، فتسلم عماد الدين حلب في ١٣ المحرم سنة ٥٧٨ هـ وأرسل عز الدين من تسلم سنجار .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبلغ السلطان صلاح الدين أن رسل الموصل وصلوا الى الافرنج يحثونهم على قتال صلاح الدين ، فعلم أنهم نكثوا اليمين ، فقصد الأتابكة لجمع كلمة العساكر الاسلامية على العدو ، فأخذ في التأهب لذلك وقد زادت حوادث الأتابكة في أشغاله ... ولما بلغ عماد الدين ذلك سير الى الموصل يشعر باخبر ويستحث العساكر ، وسار السلطان صلاح الدين حتى نزل على حلب ، فكان الأتابكة شغله الشاغل ، لأنهم صدوه عن حرب الصليبيين وصاروا عليه مع الافرنج . وكان وصوله الى حلب في ١٨ جمادى الأولى سنة ٥٧٨ هـ فأقام ثلاثة أيام ثم رحل في ٢١ منه يطلب الغزاة .

وفي هذه الأثناء استقر الحال بينه وبين مظفر الدين كوكبري ، وكان آنئذ صاحب حران . استوحش من أتابكة الموصل ، وخاف من مجاهد الدين قايماز ، فالتجأ الى السلطان صلاح الدين ، وعبر الى قاطع الفرات ، وقوى عزم السلطان على قصد بلاد الأتابكة ، وسهل أمرها عنده ، ودخل الرها والرقة ونصيبين ... فكان هذا التاريخ زمن اتصال مظفر الدين بالسلطان صلاح الدين وهو جمادى الأولى سنة ٥٧٨ هـ — ١١٨٢ م . وكان قد حثه على فتح الموصل الا انه لم يوفق ، ورجع عنها لأسباب اقتضتها الأوضاع الحربية ، لئلا يترك خلفه خالياً ... وكفاه منهم ان أرعبهم ، وجعلهم في ريب من أمرهم ، وليس لهم قوة المهاجمة .

وفي سنة ٥٧٩ هـ توسط رسول الخليفة وآخرون معه في الصلح فذهبوا الى صلاح الدين ودخلوا دمشق في ١١ ذي القعدة سنة ٥٧٩ هـ — ١١٨٤ م فلم يتفق الأمر . فان صلاح الدين اشترط في الصلح ان يكون صاحبا اربل والجزيرة على خيرتهما في الانتماء اليه أو الى الموصل وهذا دليل على النفرة من مجاهد الدين قايماز قبل هذا التاريخ . وكان صاحب اربل زين الدين يوسف أخو مظفر الدين كوكبري قد حدث بينه وبين مجاهد الدين ما حدث من وحشة بعينها كانت موجودة بين مظفر الدين وبينه ، ثم كان القبض على مجاهد الدين أيام الأتابك عز الدين وكان نائبه ، فأدى ذلك الى أن تخرج اربل وغيرها من يده لحرص الأمراء على مطالبهم الخاصة وذلك باقصاء مجاهد الدين وضياع امارات عديدة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي ذي الحجة من هذه السنة ورد على صلاح الدين رسول اربل فحلف له ، فتوثقت الالفة وحصل الاتفاق ، فأمن بهذا غائلة صاحب الموصل ولم يكن الأمر مجهولاً في الموصل فقد شعروا به قبل ان يكون موضوع البحث . ففي ١٤ جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ وصلت رسل زين الدين يوسف صاحب اربل مستصرخاً بالسلطان صلاح الدين يخبره ان عسكر الموصل وعسكر قزل بن يلدكز صاحب ديار العجم ومجاهد الدين قايماز قد نزلوا على اربل ، ونهبوا وأحرقوا في قراها فنصر عليهم وكسرهم . وكان أملهم أن يقضوا عليه فخابوا . ومن هذا يعلم انهم وقفوا على جلية الأمر فلم تخف خافية عليهم ، فقاموا بما قاموا به .

ولما سمع صلاح الدين ذلك رحل من دمشق يطلب بلاد الموصل فتقدم الى العساكر فتبعته ، وسار حتى أتى حران والتقى مع مظفر الدين بالبيرة في ١٢ المحرم سنة ٥٨١ هـ ، ووصل السلطان الى حران في ٢٢ صفر من السنة المذكورة وفي ٢٦ منه قبض على مظفر الدين بن زين الدين لشيء كان قد جرى منه ، وحديث كان قد بلغه عنه رسول فلم يقف عليه وانكره ، فأخذ منه قلعة حران والرها ، ثم أقام في الاعتقال تأديباً الى مستهل ربيع الأول ، ثم خلع عليه وطيب قلبه ، وأعاد اليه قلعة حران وديار التي كانت بيده ، وأعاده الى قانونه في الاكرام والاحترام ، ولم يتخلف له سوى قلعة الرها ، ووعده بها . وهذه الحادثة اشارة الى ان السلطان داخلته الشبهة في أنه فاوض الموصل على اربل أو فاوضته الموصل عليها .

ثم رحل صلاح الدين في ٣ ربيع الأول من السنة الى راس العين ، ووصل اليه رسول قليج ارسلان يخبره ان ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان ان لم يعد عن الموصل وماردين ، وانهم على عزم ضرب المصاف معه ان اصر على ذلك . ولكنه بعد ان قام بأعمال عدة رحل نحو الموصل في ١١ منه حتى نزل موضعاً يعرف بالاسماعيليان قريب الموصل بحيث يصل من العسكر كل يوم نوبة جديدة تحاصر الموصل ... وفي هذه الأثناء في ربيع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الآخر سنة ٥٨١ توفي صاحب خلاط ، فطمع السلطان في خلاط وارتحل عن الموصل متوجهاً نحوها .

ويهمنا أمر الموصل وصاحب اربل ، فان صلاح الدين قد صالح المواصلة وكان سبب ذلك ان الأتابك عز الدين صاحب الموصل سير ابن شداد الى الخليفة يستنجده فلم تحصل منه زبدة . ثم بلغهم ان صلاح الدين قد مرض فاتخذوا ذلك فرصة ، فبعثوا بالرسل اليه . فتم ما بينهما وبينه في ذي الحجة سنة ٥٨١ هـ[١] .

كل هذه تعين توجه علاقات صاحب اربل نحو صلاح الدين . وهكذا حالة مظفر الدين ... ودام الصلح بين الأتابكة وصلاح الدين الى تاريخ وفاته بل ان المواصلة اشتركوا فعلاً في حروب الصليبيين في المصاف الأعظم في عكا ، وهكذا مظفر الدين بن زين الدين قد اشترك بجحفله ...[٢] ومن اهم ما اشترك فيه مظفر الدين (وقعة حطين) وقد أبدى فيها بسالة تذكر . وقف هو وتقي الدين صاحب حماه وانكسر العسكر بأسره . ثم لما سمعوا بوقوفهما تراجعوا حتى كانت النصرة للمسلمين وفتح الله سبحانه عليهم[٣] .

وكان في سنة ٥٨٣ هـ قد سار مظفر الدين كوكبري ففتح الناصرة وصفورية وقد وصفها العماد الاصفهاني ببلاغته المعروفة وأطنب في الثناء عليه لربحه المعركة[٤] .

وهكذا كانت له مواقف في سنة ٥٨٤ هـ ذكرها العماد[٥] . كما ذكر من أبلى البلاء الحسن ، وخص من قام بمهمة .

نقود مضروبة :

ويهمنا أن نعين بعض النقود التي عثر عليها ، وكانت باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، واسم حسام الدين يولق بن أيل غازي من آل أرتق (٥٨٠ هـ - ٥٩٧ هـ) ضرب عليها اسم (كوكبري بن علي) . وهذه تدل على

(١) سيرة صلاح الدين : ابن شداد ص ٥٢ . (٢) ابن شداد ص ٩٣ .
(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٦٢١ (٤) الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٢٥ — ٢٦
(٥) الفتح القسي في الفتح القدسي ص ١٠٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

انهما من ضرب امارته في حرّان وتلك الجهات بعد ان انفصل من الأتابكة أيام حسام الدين يولق من بني ارتق أي في سنة ٥٨٠ هـ أو بعدها حتى سنة ٥٨٦ هـ، ولم يوجد فيها محل ضرب ولا تاريخه . ولا يصح ان يقال انهما من ضرب اربل كما وهم الأستاذ (اسماعيل غالب) في كتابه (المسكوكات التركمانية) من قسم (المسكوكات الاسلامية) ، فلم تكن لهذا النقد علاقة باربل وانما ضرب أيام حكمه على حرّان والرها وفيه انه على وفاق مع الدولتين من آل ارتق وآل أيوب . . . (١)

وهذا النقد من نحاس ، ولما كان خالياً من التاريخ ومحل الضرب فانه ضرب في أيام مظفر الدين كوكبري من سنة ٥٨٦ — الى سنة ٦٣٠ هـ أي بين هذين التاريخين وليس هذا بصواب . في هذا التاريخ لم تكن علاقة لآل أرتق باربل، وانما العلاقة بالسلطان صلاح الدين وحده ، وبأخلاقه . . .

ونوضح هذا النقد بايراد المكتوب فيه فقد جاء في صفحة منه تصوير حاكم لابس لامة الحرب في جانب منه ذكر حسام الدين يولق بن ايلغازي وفي الآخر كوكبري بن علي .

وفي الصفحة الأخرى في الوسط الملك الناصر صلاح الدنيا والدين يوسف بن أيوب (وفي الأطراف) محيي دولة أمير المؤمنين .

وفي هذا ما يغني عن الايضاح . ولعل التصوير لمظفر الدين نفسه ، وهو الذي نرجحه . . . وان العلاقات بين كوكبري وبين آل أرتق لا تزال مجهولة لم يعينها المؤرخون ، لتعرف جهة الاتصال . وكل ما نعلمه من الاستدلال بالحالة المشهودة ان مظفر الدين كوكبري انفصل عن الموصل ، فولد اتفاقاً بينه وبين آل أرتق كما انه مال إلى صلاح الدين ، وأخلص له في التعاون لحرب الصليبيين ، فتمكنت الألفة ، فاشترك آل ارتق ، وآل أيوب ، في ضرب النقود وكان آل أرتق يقرنون أسماءهم بأسماء آل ايوب .

(١) المسكوكات التركمانية من قسم المسكوكات الاسلامية ص ١٦٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولما كان حسام الدين يولق ولي الأمر سنة ٥٨٠ هـ فلا شك ان ضرب النقود جرى في هذا التاريخ أو بعده . وهو محدد بسنة ٥٨٦ هـ لأن كوكبري انفصل من هناك في هذا التاريخ ، فعلم ان النقد المضروب كان خلال المدة بين ٥٨٠ و٥٨٦ هـ .

وفي سيرة صلاح الدين لابن شداد : « في أواخر ذلك اليوم ـ ٢٨ ربيع الاول سنة ٥٨٦ هـ — ١٩٠ م ـ قدم ـ الى السلطان صلاح الدين ـ مظفر الدين بن زين الدين جريدة مسارعة للخدمة ، ثم عاد الى عسكره في لامة الحرب ، فعرضهم السلطان حتى وقف بهم على العدو ، وكان ما تقدم عسكر الا يعرضهم ويسيرهم الى العدو ، وينزل بهم في خيمته يمدّ لهم الطعام . وينعم عليهم بما يطيب به قلوبهم اذا كانوا أجانب ثم تضرب خيامهم حيث يأمر ، وينزلون بها مكرمين »[1] .

ثم جاء أخوه زين الدين يوسف ، واستقبله السلطان ، وبعد مدة قصيرة مرض فتوفي ، فصار مظفر الدين كوكبري مكانه على امارة اربل ، وتنازل عما كان بيده من اقطاع الى السلطان صلاح الدين فأنعم بها على الملك المظفر تقي الدين . فتكون مدة مظفر الدين خارج اربل قد دامت الى ٣ شوال سنة ٥٨٦ .

ابو المظفر زين الدين يوسف بن بكتكين

(أمارته على اربل) من سنة ٥٦٦ هـ الى سنة ٥٨٦ هـ

ولي زين الدين يوسف بن بكتكين بعد اخيه كوكبري . ومدة امارته نحو ٢٠ سنة . ومن الغريب ان المؤرخين لم يذكروا أعماله فيها ، كأنها لمحة بصر أو برق خاطف . ولا شك ان سني الوصاية كانت إلى سنة ٥٧١ هـ وهذه ليس له عمل فيها . فاستقل الا انه لم يذكر له حادث مهم خلال هذه المدة من سنة ٥٧١ هـ الى سنة ٥٨٦ هـ .

وبمراجعة حوادث المعاصرين واستنطاق جملة من المؤرخين كتب لنا العثور على بعض الحوادث الغامضة عن أيام امارة زين الدين يوسف فهل كان خامل الذكر

(١) سيرة صلاح الدين لابن شداد ص ١٠٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في حين انه استكبر عمل قايماز من جراء ارساله فضلة دخل اربل الى الأتابكة ، واستبداده في الأمور ، فتمكن من اخراجه ، أو انه قربه الأتابكة اليهم لما رأوا من اخلاصه لهم . وكان المأمول أن يكتب ابن الأثير ، ولكنه أغفل ذلك ، وذكر أعماله المهمة التي تستدعي مدحه واكتفى بها . وكان المتوقع ان يكتب المؤرخون الآخرون ، ولم تصل الينا جميع الوثائق التاريخية للعماد الكاتب الاصبهاني ، ولا مخابرات مجد الدين ابن الأثير . فلا تزال الوثائق مطمورة أو ادركها الفناء .

ولم نتوصل الا الى :

١ — واقعة اربل . وهذه زادت في المشادة . أدرك زين الدين يوسف توتر الوضع . ولعل العلاقة ولدها قايماز نفسه . وتفصيل الخبر ان دولة الأتابكة في الموصل كانت تتطلب ما كان يقدمه قايماز أيام نيابته على اربل ، فرأى ذلك أمراً كبيراً وان عددناه السبب في ذهاب قايماز من اربل ، وذهابه الى الموصل ، فلا ينبغي أن تعاد التجربة ...

ولّد ذهاب قايماز وتولية نيابة الموصل توتراً بين اربل والموصل ، فلم يشأ زين الدين يوسف ان يحمل الأموال لدولة الأتابكة فأدى ذلك الى النفرة بل يعتبر العامل الأكبر في انفصاله من الموصل ، وشموسه على دولة الأتابكة ، وميله الى صلاح الدين وقد ظهرت قوته ، وعظمت مكانته في كسره قوة الأتابكة الذين تولى أمرهم قايماز وهذه الواقعة قربت أكثر من صلاح الدين بل ان صلاح الدين في رغبة لمن يمدّ يد المعونة اليه .

كان ذلك في سنة ٥٨٠ هـ — ١١٨٤ م ، وصلت رسل صاحب اربل صلاح الدين في ١٤ جمادى الآخرة من هذه السنة فسار صلاح الدين يطلب بلاد الموصل انتقاماً من هذه الفعلة .

٢ — قيامه بمعاونة فعلية لصلاح الدين في حرب الصليبيين ، وظهرت له حوادث أخرى . فلم يهمل أمر المساعدة بالمال والنفوس . وكانت اربل يد الأتابكة القوية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

النتاكة في حروبها ، فحرمها الخرق ، والحرص الزائد دون العقل بل كان عملها طيشاً ، ولذا كانت اقطاعات أميرها زين الدين علي كوچك بقدر ما كان يقوم به من الأعمال ، وهذا ما كان صلاح الدين يترقبه لجلب أمير اربل زين الدين يوسف كما أنه للغرض نفسه قرب اليه مظفر الدين وكان قد نفر دولة الأتابكة في الموصل لأن مدبر أمرها مجاهد الدين قايماز وكان قد طرده من أمارته وامارة أبيه وجعله مشرداً يتطلب استعادة ملكه المنتزع منه .

٣ — وفاته . كانت في أيام جهاده في سبيل الله نصرة للإسلام في الحروب الصليبية . وكان ذلك في ٢٨ رمضان سنة ٥٨٦ هـ — ١١٩٠ م بالناصرة بالقرب من عكا ، ويقال ان المسيح (عليه السلام) ولد بها .

أما حياته في أيام الوصاية فانها لا تذكر ، وانما ذكرها المؤرخون لنائبه قايماز ، والأيام الأخرى في نفرته من قايماز ، وممن التزم جانبه من الأتابكة فأدى الى انفصاله عن دولة الأتابكة واتصاله بالسلطان صلاح الدين ، ثم وفاته في سبيل الله مجاهداً ...

نعته في الفتح القدمي بقوله : «كان جاراً للكتائب ، باراً بالأباعد والاقارب ... مرضت الأيام ببرضه أياماً ، وتلهبت القلوب منا للتلهف عليه وقد أمست مراضاً ضراماً ، وعدته بطبيب السلطان فلم يأنس به ، ولم يسكن الى طبه ، لما كان يعلم من منافسة أخيه مظفر الدين في موضعه ، وانه ينتعش بمصرعه ، فاكتفى بصاحب له يطبه ، يوافقه على ما يحبه ، وهو جاهل بمزاجه ، ذاهل عن علاجه ، فشب الحمام في حمى شبابه ناره ، وأذوى غصنه غداة قلنا ما أزهى أزهاره ، وما أنضر نضاره ... ولزمه أخوه مظفر الدين حتى فارقه ، وما ظهر عليه الغم حتى قيل انه سره موته ووافقه ، وقصدناه معزين على ظن انه جلس للعزاء ، فاذا هو في مثل يوم الهناء ، وهو في خيمة ضربها في مخيم أخيه ، واحتاط على جميع ما يحويه ، ووكل بالامراء أصحاب القلاع ليسلموها ، وخشي ان يعصوا فيها اذا رجعوا اليها ويحموها ، وخدم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بخمسين الف دينار حتى اخذ اربل وبلادها ، ونزل عن حران والرها وسميساط والبلاد التي معه وأعادها ، وزاده السلطان شهرزور ، وأحكم تسييره الأسباب والأمور ، فاستمهل الى حين وصول الملك المظفر تقي الدين لينزل في منزلته بجنده وصحبه الميامين ، فوصل يوم الأحد ٣ شوال سنة ٥٨٦ فخلى بعد العطل الأحوال ...» اه[1]

وجاء في سيرة صلاح الدين لابن شداد : «ثم كان وصول زين الدين صاحب اربل في العشر الأواخر من جمادى الأولى (سنة ٥٨٦ هـ — ١١٩٠ م) وهو زين الدين يوسف بن علي بن بكتكين ، قدم بعسكر حسن وتجمل جميل ، فاحترمه السلطان وأكرمه وأنزله في خيمته ، واكرم ضيافته ، وأمر بضرب خيمته الى جانب خيمة أخيه مظفر الدين .» اه[2]

أما أخوه فقد جاء الى صلاح الدين بتجريدة في ٢٨ ربيع الأول سنة ٥٨٦ هـ — ١١٩٠ م.

وعن مرضه ووفاته قال : «وفي ذلك اليوم — ٩ ارمضان سنة ٥٨٦ هـ — ١١٩٠ م — مرض زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب اربل مرضاً شديداً بحميين مختلفتي الأوقات واستأذن في الرواح فلم يؤذن له ، فاستأذن في الانتقال الى الناصرة فأذن له في ذلك اليوم ، وأقام بالناصرة أياماً عديدة يمرض نفسه ، فاشتد به المرض الى ليلة الثلاثاء ٢٨ رمضان وتوفي رحمه الله ، وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده وحزن الناس عليه لمكان شبابه وغربته ، وأنعم السلطان على أخيه مظفر الدين ببلده ، واستنزله عن بلاده التي كانت في يده وهي حران والرها وما يتبعهما من البلاد والأعمال ، وضم اليه بلد شهرزور أيضاً ، واستدعى الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه ليكون نازلاً مكانه جابراً خلل غيبته ، وأقام مظفر الدين في نظرة قدوم تقي الدين ، ولما كان ضحاء نهار ٣ شوال سنة ٥٨٦ قدم وعاد صحبة معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي وهو صاحب الجزيرة إذ ذاك ...» اه[3]

(١) الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٢١٨ . (٢) سيرة صلاح الدين لابن شداد ص ١٠٦

(٣) سيرة صلاح الدين لابن شداد ص ١٢٩ وابن أبي عذيبة ج ٥ ص ٢٩ وابن خلكان في ترجمة الموفق . وهناك قصيدة مدحه بها ج ٢ ص ٣٦ ..

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مظفر الدين كوكبري

امارته الثانية (٥٨٦ هـ : ٦٣٠ هـ)

من أعظم (آل بكتكين)، وأكابر من اشتهر من رجالها. وجاء لقبه في النقود (ملك الأمراء) مظفر الدين أبو سعيد كوكبري. لم يسبقه أحد من أسرته في فضل، وان كانوا ذوي مكانة لا تنكر، ولا شاركه في ما قام به مشارك في مكرمة وانعام وان كان لا يصح ان تهمل قدرتهم على الادارة وقوتهم في الحروب، بل قد تتضاءل عنه عظمة الملوك، لا في السفك والنهب، بل في اعمال البر والخير، وما يعلي شأن المملكة ويقوي ثقافتها وآدابها..

ويعد بحق رجل التاريخ لا يزال ذكره منتشراً في الأوساط العلمية، وفي التاريخ السياسي والأدبي والديني: أرضى صنوف الجماعات، ووجه المملكة توجيهاً حقاً. لم يطوح بها في المآزق الحرجة، ولم يكن من الفاتحين السفاكين المجازفين، أو العتاة الجبارين. كان الفذ من نوعه بين أمراء الشرق، أحيا اربل حياة طيبة، وأنعشها وأعلى مدارکها بما لا مزيد عليه في امارة لم يكن لها من الشأن قبل هذه الأسرة ما تستحق ان تذكر به...

قام بادارة حقة، وبأعمال سياسية مقبولة معتدلة، ومكن من ثقافة لائقة وراعى الأمور الدينية، والأخلاق القويمة، فكان لتنظيمه أثره، ولادارة ماليته وجيشه المكانة الفعالة في الترتيب المرضي بين عوامل متنوعة، متنازعة الأهواء، فهو محاط بدولة الأتابكة، وبالخلافة، ودولة الأيوبيين، أوقف المجاورين عند حدودهم، وهم يتحفزون للوثوب، ويتأهبون للغنيمة، فتمكن بحكمته وحسن سياسته، أن يضرب بعضهم ببعض، يتفق مع هذه مرة، ومع تلك أخرى، ويداري الخلافة.

كان في أهبة من الطوارئ، لم يستطع أن يتحكم به أحد، ولم يفتر أو يطش، بل استخدم القوة ولم يطوح بها، وآماله مصروفة للتفاهم لا للحرب في حين ان قوته لا يستهان بها، فيهدد بها الدول الأخرى، ولا يركن إلى المشادة. تمكن من اعلاء شأن هذه الامارة، فأبقى لها حسن السمعة، ولم يكن كملوك مضوا غير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مأسوف عليهم . ذهبت أعمالهم هباء ، أو كانت محل الاعتبار والسخط ، وذكراها ذكرى الجبابرة السفاكين . كانت حياته بنشاط كبير ، ولم تكن خاملة مهملة .

تبتدئ حياته في اربل من تاريخ ذهابه من عند السلطان صلاح الدين بعد وفاة اخيه ، وتنازله عن بلاده ، وطلب العودة الى اربل والاكتفاء بها ، فذهب اليها في ٣ شوال سنة ٥٨٦ هـ .

ظهرت مواهبه ، وبدت أعماله المستقلة ، وظل على ولاء صلاح الدين الى ان توفي ، ثم والى الملك العادل بالوجه المذكور . وكانت العلاقة بالأتابكة قد قطعت من أيام اخيه زين الدين يوسف بن شكين ومالت الى الدولة الايوبية وصلته بها كانت قبل أخيه .

النقود المضروبة في أيامه

وهذه وصل الينا أقدمها ، ولعلها أول ماضرب . وهو النقد المؤرخ في سنة ٥٨٧ هـ ، فان مجيئه الى اربل كان في ٣ شوال سنة ٥٨٦ هـ — ١١٩٠ م ولا شك انه بعد وصوله اليها لم يستطع ان يقوم بالضرب في تلك السنة التي دخلها أي لم نشاهد له في هذه السنة نقداً مضروباً ، وانما شوهد هذا النقد وجاء فيه ذكر الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب مقروناً باسمه (كوكبري بن علي) .

ولا شك انه كان على ولاء هذا السلطان فذكر اسمه في صفحة ، والخليفة الناصر لدين الله امير المؤمنين ، وولي عهده عدة الدنيا والدين أبا نصر محمداً في الصفحة الأخرى . مضى كوكبري على ضرب النقود مصرحاً باسم الملوك من آل أيوب الى أيام الملك الأشرف ابي الفتح موسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر الأيوبي ، ففي سنة ٦٢٧ هـ من أيامه شعر باتفاق كان بينه وبين بدر الدين لؤلؤ للقضاء على امارة اربل ، فمال الى الخليفة المستنصر بالله ، ولكننا لم نقف على نقود له في هذه السنة ، ولا السنين التي بعدها .

كان الأمير كوكبري قد ذكر في نقوده السلطان صلاح الدين ، والملك العادل ، والملك الكامل الى تاريخ الانفصال من الأيوبيين .

يتبع :

(بغداد) عباس العزاوي

م (٤)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net